# المتلاشي

(إلى جميع المتلاشين، منهم مَن تلاشى، ومنهم مَن ينتظر)

عامر الدبك ❖

كان طويلاً عريضَ المنكبين. رأسُه يُطَمئن القلقين والحيارى لأنّه يشْبهُ البطّيخَ الصيفيّ. وبطنُه كبَطنِ امرأةٍ حبلى في شهرها السابع أو الثامن. وقبل أن يغادر منزلَه، كان يقف أمام المرآة ويتأمّل نفسه كعارضٍ لأزياء انقرضتْ، فيطمئنّ إلى هيبته ومقدرته على حمل عظائم الأمور.

كان يُصرّ دائمًا، أمام كلّ مَن يجلس معه، على أنّ جدّه كان أحدَ الحكماء، وأنّ الجدّ لم يقلّ حكمةً عن لقمان الحكيم، وعن توفيق الحكيم أيضًا. وعندما يسأله أحدُهم: «مَن هو توفيق الحكيم هذا؟ وما علاقة لقمان بتوفيق؟» كان يضحك ويهزّ رأسَه أسفًا على جهل سائلِه، وكانت بطنه تشاركه الاهتزازَ تأكيدًا على جهل الجاهلِين أمامه. ثم ينهمك في حديثٍ آخر يجعل مَن سأله نادمًا على اللحظة التي جلس معه فيها.

استطاع، بما يمتلك من صفات تعبويّة ومعانٍ داخليّة، أن يُقنِعَ المتنفّذين في القرية بأنّ في رأسه الكثيرَ من حكايات جدّه الحكيم، وأنّ هذه الحكايات فيها من الفائدة ما يجعل القريةَ هي الأهمّ بين القرى المجاورة في شمال المدينة. ولأنّ كلّ مَن في القرية يَحْمل رأسًا يشْبه رأسَه، وإنْ كان أصغرَ حجمًا، فقد ازدادوا اقتناعًا بما يقوله. فتسامروا وتباحثوا وتناقشوا. وخرج الجميعُ بقرار تأسيس «اتّحاد الأجداد الحكماء.» ثمّ عَمَدوا إلى انتخاب الحاجّ فوزي الدلش رئيسًا للاتّحاد، على أن يكون مقرُّه قرب مقرّ اتّحاد الفلاّحين. وقال المختار ـ صاحبُ الرأس الثاني حجمًا ـ إنّه سيتبرّع بنصف مساحة إصطبله ليكون مقرّاً للاتّحاد الجديد. وبالرغم من اعتراض البعض على هذا المكان خوفًا من الروائح والأصوات المزعجة، فإنّ حكمة الحاجّ فوزي رأت غيرَ ذلك، فوافقه الجميعُ على أنّ الروائح تزيد مِنْ تخمّر الأفكار في الرؤوس، وتجعل روايةَ حكايات الأجداد شديدةَ الالتصاق بالواقع والبيئة.

حدث ذلك قبل عام من حادثة التلاشي التي أدهشت القريةَ وما حولها.

بعد مضيّ عام واحد على تأسيس الاتّحاد، أحسّ الحاجّ فوزي بتغيّرات تطرأ عليه. لم يعرف أين تحدُثُ، لكنّه يَشْعر بها تُغيّر جسدَه. وأوّلُ مَن انتبه إلى ذلك زوجتُه؛ فبعد أن كان يَشْغل ثلثَي الفراش، أصبح يَشْغل نصفَه فقط. أمّا رأسُه فبقي يحتلّ ثلثَي الوسادة. وعندما صارحَتْه بذلك، وقف أمام المرآة، فأصابه المنظرُ بالذهول. إلاّ أنّه قال لزوجته حينها: «لا شكّ في أنّ حكمة الأجداد استدعت ذلك. وهذا يُثبت أنّ الحكمة تَخْرج من جسدي، فينكمش جرّاء فقدانها. لا بدّ من أن نُضحّي من أجل استعادة حكمة الأجداد لننهضَ بالقرية.»

إلاّ أنّ الأمر تفاقم، ما دفع بالزوجة، وبحكمتها التي استمدّتها من حكمة الحاجّ أيّامَ كان يَشْغل ثلثَي الفراش، إلى أن تُقنِعه بالتظاهر بالمرض، وبالاندساس في الفراش كي لا ينتبهَ الآخرون إلى مقدار الحكمة التي تتطاير من جسده فينتخبوا رجلاً أكثر حكمةً منه، فاقتنع بذلك. ثمّ استُدْعِي الأطبّاءُ والعرّافون والمختصّون للنظر في حالة رئيس الاتّحاد من دون عِلم أهل القرية. لاحظ الأطبّاء أنّ الجسد ينكمش ويغوص في القدمين، وأنّ الرأس يقترب شيئًا فشيئًا من القدمين. حيّرتْ هذه الظاهرة الأَطبّاءَ، وأقلقت العرّافين، ولم يجدوا أيَّ سببٍ ظاهرٍ لهذا الانكماش، فبكت الزوجة.

وما لبث أنْ عرف الجميعُ بالأمر، فناحت النسوةُ في القرية وهنّ ينظرن إلى مستقبل أزواجهنّ، خصوصًا أنّ الأزواج كانوا أعضاءً في اتّحاد الحاجّ فوزي.

وعندما حدث التلاشي الكبير، شقّ هدوءَ القرية صراخٌ وعويلٌ صادران عن الزوجة. هرع الجميعُ إلى منزل الحاجّ وتساءلوا عمّا يجري في الداخل، فجاءهم الجوابُ بصرخةٍ أشدّ وأعلى من كلّ الصراخ الذي سبق:

ـ الحاجّ فوزي تلاشى... يا أهالي القرية، الحاجّ فوزي تلاشى.

وانفرج بابُ المنزل عن امرأةٍ بقميص النوم، فغضّ الرجالُ عيونَهم، والتَفّت النسوةُ حول الزوجة وهنّ في حالة نواحٍ مؤثّرة. وبعد أن هدأتْ، سألْنها عمّا حدث، فقالت بعد أن بلعتْ دموعَها بشهقتين عميقتين:

ـ استيقظتُ هذا الصباح، بعد معاناة شديدة للنوم، فلم أجد الحاجّ فوزي.

سألتها إحداهنّ: «وأين ذهب؟»

---

❖ ـ كاتب من سورية.

ـ لم يذهب!

ـ إذنْ، كيف لم تجديه؟ هل بحثتِ عنه في الحمّام؟

ـ إنّه لم يغادر غرفة النوم!

بدتْ على وجوه النسوة دهشةٌ تهزّ الأوصالَ. وتساءَلن معًا: «كيف؟»

تأهّبت الزوجةُ لصراخٍ يصمّ الآذان، وقالت:

ـ الحاجّ فوزي تلاشى ولم يبقَ منه سوى رأسه وقدميه.

صمتَ الجميع وكأنّ الطير حلّق فوق رؤوسهم، ثمّ تابعتْ بنواحٍ أشدّ: «جسدُه تلاشى...»

فقالت إحدى النسوة: «تلاشى!... تلاشى!... ولم يبقَ منه... ولاّ حتّى...؟»

فصرخت الزوجةُ بحرقةٍ أكبر:

ـ لو بقي ذلك الشيءُ لما سمعتُنّ صراخي. لكنّه تلاشى ولم يبقَ منه سوى رأسه وقدميه...

نظر الجميعُ في وجوه بعضهم بعضًا بدهشة، رجالاً ونساءً. ثمّ بادر المختار:

ـ لا بدّ من استدعاء لجنةٍ طبيّةٍ من المدينة للنظر في هذا المرض الجديد على قريتنا؛ نخشى أن يكون معْديًا.

❖ ❖ ❖

قال رئيسُ اللجنة المذهولُ بدوره:

ـ يا جماعة، إنّ جسد الحاجّ فوزي انكمش وغاص في قدميه، وهذا جعل القدمين كبيرتين. والسببُ في ذلك، بحسب التحاليل، يعود إلى أنّ مخَّ الحاجّ صغيرٌ لا يتجاوز حجمَ مخّ جرذٍ صغيرٍ. وهذا المخّ لم يستطع أنْ يقود عمليّاتِ جسده الضخم؛ فتلاشى الجسدُ وانكمش في القدمين، حتّى التصق الرأسُ بهما.

ـ وما السبب؟ (سأل المختار).

ـ في البداية كان الحاجّ فوزي لا يحتاج إلى عمل المخّ، لذلك كان المخُّ خاملاً، والجسدُ يسيِّر نفسَه بنفسه. وعندما فكّر أن يروي حكاياتِ جدّه الحكيم، أُصيب المخُّ بصدمةٍ، فتنبّه إلى صلته بالجسد الضخم الذي لا يتناسب وقدراتِه، فأصدر الأوامرَ إلى كلّ الأعضاء بالتلاشي والانكماش في القدمين.

ـ وهل هذا الأمرُ معدٍ؟

قال الطبيب الذي أُصيب بالوهن هو الآخر:

ـ ربّما.

فتراكض الرجالُ وهم يتلمّسون أجسادَهم. وأقسمَت النسوةُ عليهم بألاّ يفكّروا أبدًا. وأُغلِق الاتّحادُ بأمرٍ من المختار، وأُعيدَ وصلُه بالإصطبل.

أمّا الحاجّ فوزي، رئيسُ الاتّحاد، فلم يستطع أن يعودَ إلى ما كان عليه، بالرغم من محاولاته تعطيلَ المخّ وفصلَ صِلته بالجسد المتلاشي. فهجره الجميع، حتّى زوجته التي طلّقها منه شيخُ القرية لعدم توفّر الجسد: الشرطِ الأساسيّ لاستمرار الزواج. فمات في فراشه بلا جسد.

وعندما حُمِلتْ جمجمتُه وقدماه إلى الوادي من أجل حرقهما، شاهد أحدُ أعضاء لجنة الحرق جرذًا صغيرًا يخرج من الجمجمة، ويركض في الوادي. حينها، قال عرّافُ القرية محذّرًا: «إنّ ما حلّ بالحاج فوزي هو لعنةٌ من لعنات الأجداد، لأنّه أساءَ إليهم برواياته وحكاياته.»

**حلب**